نحو فك أسر مفهومي : بضاعة الأمة وحكمة الأمة
" مفتاح مخطط لموسوعة في علم النفس الإسلامي"

أ.د. السيد محمد السيد عمر*

تمثل المحفز لي لتحرير هذه المقاربة، في تردد مقولتين في ورشة عمل شرفت بحضورها مؤخراً ، بمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة مع كوكبة من أبرز علماء التربية وعلم النفس بالسودان الشقيق ، حول : التأصيل الإسلامي للعلوم وإنتاج الكتاب المنهجي الجامعي الإسلامي في حقلي علوم التربية وعلم النفس. فلقد سمعت مراراً منهم: أنّ الغرب أسس علومه الطبيعية والإنسانية والاجتماعية على منهاجية استقاها من العقل المسلم ، وعلى خمائر معرفية إسلامية ، ونحن إذ ننقل تلك العلوم فإنما هي (بضاعتنا ردت إلينا) ، وأنّ الانفتاح على العلوم الغربية المعاصرة هو نواة التأصيل الإسلامي للعلوم. فلا يستطيع التأصيل إلا من يتعمق أولاً في علوم الغرب الحديثة. فالحكمة ضالة المؤمن أنّا وجدها فهو أولى الناس بها. ولم يقف الأمر في تلك الورشة العلمية على ترديد تلك المقولتين ، بل كانت السمة الرئيسة لما عرض بها من كتب اعتبرها هؤلاء العلماء رائدة في مجال إسلامية المعرفة، هي استنساخ معمار العلوم الغربية المعاصرة على مستوى موضوعاته ومناهج تحصيله ومفرداته ومفاهيمه ، مع مجرد إشارة خاطفة لشواهد قرآنية وحديثية . وتأكدت تلك السمة على نحو صارخ في عرض مقترح لـ(موسوعة لعلم النفس الإسلامي) حيث استدعى ذلك المقترح كل علوم النفس الغربية بمسمياتها و مفرداتها . ولفت نظري أنّ ذلك الطرح لم يقابل بأدنى مناقشة من الفريق السوداني ، وكأنّه أمر طبيعي ومستساغ . ولم أجد غير فرصة خاطفة للإسرار إلى مقدمة ذلك المقترح بأنّ تضمين مفردة (إسلامي) في عنوان الموسوعة المزمع تأليفها ، يقتضي النسج بمنوال قرآني نواته بناء مفهوم: علم النفس في القرآن الكريم ، واستدعاء مفهوم : وحدة المعرفة ، بحيث تصير كافة العلوم روافد تصب في بوتقة واحدة تتغذى منها وتغذيها ، ولا يكون الفارق بين أي علم وعلم آخر، أكثر من: التنوع في بؤرة مقاربة المعرفة الواحدة المتراحمة. ووعدت في نهاية ذلك النقاش بتزويد الباحثة الكريمة بما أعتبره مفتاحاً لبناء موسوعة لعلم النفس الإسلامي، جديرة باعتبارها اسماً على مسمى.

---

* أستاذ النظرية السياسية بجامعة حلوان ، مصر.

والغاية من البيان الخاطف لهذا **المفتاح** ومتطلبات استعماله هي الخروج من آفة أصابت جل ما أنتجه و ينتجه العقل المسلم في العصر الحديث ، من مؤلفات في شتى فروع المعرفة، وفي بؤرتها علوم التربية وعلم النفس ، لتعلقها بكافة العلوم عند النظر إليه بمنظار إسلامي، يمكن التعبير عنها بعنوانين مترابطين:

أولهما : التخلص من ظاهرة إلباس ما ننتجه من مؤلفات : **العمامة** بدلا من **القبعة** ، باستيراد معمار العلوم التي نشأت في الغرب في عصر الدولة القومية ، باقتباس تصنيفها ومسميات فروع كل منها: الطبيعية والإنسانية والاجتماعية ، وبالمفردات الكائنة داخل كل فرع منها ، والمفاهيم الرئيسة داخل كل فرع معرفي وبذات الدلالة السائدة لها في المنظور العلماني الغربي .

ثانيها: الانتهاء عن بذل كل ما بالوسع في البحث عن معضدات قرآنية وحديثية لتلك العلوم، وكأن معنى أسلمة العلوم ومعنى التأصيل الإسلامي للعلوم هو: البرهنة على صدقية وصحة العلوم الغربية المعاصرة و توظيف العقل المسلم في خدمتها - عن غير قصد بالتأكيد.

ويمكن القول بأنّ حالة تيه عقل أمتنا في القرنين الأخيرين نابعة بالأساس من مقولتين معرفيتين مفخختين ، **أولاهما**: هذه بضاعتنا ردت إلينا ، و**ثانيهما**: الحكمة ضالة المؤمن أنّا وجدها فهو أولى الناس بها.

وموطن الخلل في المقولة الأولى أنّ القول بها هو العلامة الكبرى على الخلل في الفهم ، وعلى الذهول عن كامن تلك العلوم. وموطن الخلل في الثانية هو فهمها على نحو يستتبع بحث الظمآن عن ماء بقيعة . فلنلق بعض الضوء لكشف خطورة الفهم السائد لهاتين المقولتين في العقل الإسلامي المعاصر .

و**أولى تلكما الجملتين المعرفيتين** بالغتي الخطورة التي يسوغ بهما معظم من يؤلفون بمنوال إحلال العمامة الإسلامية محل القبعة الأفرنجية ، السير في هذا الاتجاه في بناء العلوم هي مقولة : إن الغرب تأثر بعلوم أمتنا في لحظة ازدهارها . وبالتالي حين نستعير من العلوم الغربية الحديثة فإنما هي: **بضاعتنا ردت إلينا** .

وتلك مقولة شديدة الشبه بقول بتسمية اللعين إبليس في غوايته الأولى لآدم وحواء (الشجرة المحرم الاقتراب منها) ب(شجرة الخلد وملك لايبلى) . ذلك أنّ الغرب الحديث بنى نهضته المعاصرة وعمران الاستدراج الرهيب الذي حققه على ما قدمه العقل الإسلامي في البحث التجريبي الذي هو في منظور هذا العقل هو : السبيل للتدبر في أشياء الخليقة واستكشاف السنن المبثوثة في الكون المنظور .

ولكن ما يجب أن لا يغيب عن بال العقل المسلم هو: حقيقة أن الغرب رفض بالمطلق أخذ ناظم السعي الإنساني من الإسلام ، فرفض ميزان المعرفة الإسلامي بكل ما يتعلق به من آداب السعي في بناء المعرفة وفي استثمار ما يتحقق من تمكين نتيجة هذا السعي. وأقام العقل الغربي الحديث قطيعة بينه وبين الدين الإسلامي وناصبه العداء ، وبنى مخياله رؤية دهرية محضة للوجود الإنساني على الأرض بكافة أبعاده تقوم على النشوء والتطور وتأليه العقل الإنساني تارة والطبيعة تارة أخرى ، ونظم كل شيء في الوجود بالصراع .وبالتالي ، فإن اقتباس الغرب للمنهاجية التجريبية الإسلامية ، وبنائه على ما أثمره العقل المسلم من علوم تتعلق بالتعامل مع الأشياء ، وُجِه على الدوام إلى محاربة الإسلام والسعي إلى فتنة المسلمين في دينهم وتشويه صورتهم .

ودون إطالة في تقديم إضاءة معرفية على الطابع الفتاك لمقولة (**هذه بضاعتنا ردت إلينا**) يكفيني القول بأنّ **العقل الدهري** ينتج على مدى التاريخ الإنساني علوماً مغايرة لتلك التي ينتجها **العقل التوحيدي** ، وما ننقله عن الغرب هو بالتالي معرفة مشبوهة ، لا بد من التنبه إلى كامنها المفخخ ، وإخضاعها لمرشحات معرفية ، والتزود بكواسح ألغام ، وبحصانة قرآنية ، بالنسبة لكل من يسعى من علماء الأمة للتدبر فيها ، والفحص الرشيد لمسمياتها ولفروعها ولمفاهيمها ولمآلات دخول جحر ضبها .

ويمكنني في هذا المقام أن أكتفي بذكر مفتاح ما يستحق أن يسمى (**بضاعتنا**) وما حقه أن يسمى (**بضاعتهم**) ، وهو : بضاعتنا هي : كل ما يمت بصلة **ل(قوة الحق)** . و أما كل ما يمت بصلة لـ(**حق القوة**) فهو حتى لو كانت بذرته الأولى من عند أمتنا المكلفة بأن تكون خير أمة أخرجت للناس ، فهو لم يعد يمت لها بصلة ، بعد أن تم أسره وتفخيخه وتسميمه ، وتوظيفه في استعمار ديار الإسلام وعقول المسلمين ، وأصبح دليله هو : البقاء للأقوى ، بمنأى تام عن : التزام كلمة التقوى والبحث عن الكلمة السواء والسعي إلى ما يجمع بين البشر واجتناب ما يؤدي إلى الفرقة والصراع بينهم .

ولعلي أذكر علماء أمتي هنا ببعض مقولات ، سيسألون بين يدي الله تعالى عن هجرها وعدم القيام بحقها . **فمالك بن نبي** يحذر أمته من ثلاثة : **الأورام المعرفية** (ومن بين شواهدها الاحتكام إلى عدد المؤلفات في كل علم وليس إلى نوعيتها ووزنها في ميزان المقاصد القرآنية العليا ومقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة) ، **والقوارض المجازة** (من يخرجون إلى الغرب من المبتعثين دون تحصين قرآني كافٍ ، فيعودون من هنا بنفاياته وبمعرفة سطحية بعلومه ، مع جهل بهويتهم الأصلية ، فيصيرون بمثابة فئران يخرقون سفينة عقل الأمة) و**المرايا المعطلة** (المعرفة المزجاة التي يلتبس فيها الحق بالباطل ، فتصير بالنسبة لمن يريد أن يرى ذاته بها ، وأن يرى الخليقة بها ، شبيهة بالمرآة المليئة

بالشقوق ، التي تجعله عاجزاً عن رؤية أي شيء على حقيقته ، بما يفتح المجال واسعاً أمام الرؤية بأضغاث أحلام وبخيال مريض وممرض) .

وكأني بإسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله يكرر على مسامع أمته تلك المقولة التي نطق بها النبي على عرفات يوم حجة الوداع (اللهم هل بلغت اللهم فاشهد) . فها هو يدعو إلى تحصين المبتعثين للدراسة بالغرب بالإسلام ، بحيث تصير لهم مهمتان : **هداية العقل الغربي** إلى الخروج من طغيانه ، بفتح أفقه على معالم النظام العالمي الذي أقامه الإسلام في نموذج دولة المدينة المنورة من أربعة عشر قرناً ،والتحرك على الطريق إلى كلمة سواء تدخل البشرية بها في أحضان السلام الإسلامي الجامع ، و **القيام** بدور (**المبتعث الأخير**) الذي يتطابق هدفه الشخصي مع الغاية التي تسعى إليها أمته ، ويكون صاحب قضية ، يضع نصب عينه أن يكون آخر المبتعثين لنقل جوهر المعرفة الغربية في مجال تخصصه إلى أمته . فهو يدعو المبتعث إلى الغرب أن لا يكون مجرد متلق للمعرفة ، بل مقدم لها ، وأن لا يكتفي بنقل قشور وفتات المعرفة الغربية ، التي يحرص الغربيون على عدم تقديم ما هو سواها له ، بل يحصنون ذلك الفتات بما يسمونه : حقوق الملكية الفكرية ، ويحصنون ما عداه بمقولة : خطورة تمكين غيرهم من مفاتيح مساواتهم في أسرار القوة .

ويلح الفاروقي على أن تكون نية كل مبتعث إسلامي إلى الغرب أن يكون هو (**آخر المبتعثين**) ، بأن يصير من طرازه : هو وأمثال عبد الحليم محمود ومحمد عبد الله دراز ومالك بن نبي ، وليس كجحافل من عادوا من بعثاتهم بالغرب ، فصاروا مجرد ناقلين للقشور التي تلقوها من علومه ، منافحين عن استدامة التبعية للغرب ، يمثلون بتعبير محمد الغزالي : جلطة في شرايين أمتهم .

ولم يكتف الفاروقي بكشف الغطاء عن تلك المهمة للمبتعث المسلم : هداية العقل الغربي للخروج من الطغيان ، ونقل صورة حقيقية عن الطابع العنكبوتي للعلوم الغربية المعاصرة إلى أمته ، و الاجتهاد في استخلاص أجود ما تبقى فيه من خير ، وإنما رسم للعقل المسلم ما سماه (**منهاجية إزالة الاستعمار الغربي للمعرفة**) .

ويقدم **الشاهد البوشيخي** بدوره مفتاح التحصين للعقل المسلم ضد الاستعمار المعرفي ، بتجليته حقيقة أن أهم مفهوم يتعين أن يركز عليه الباحثون وعلماء الأمة في كافة مجالات المعرفة هو مفهوم :(**الذات: من نحن ؟**) بما أنه هو وعاء كافة مكنات الأمة. ومن هنا فإن جوهر وهن الأمة الحالي هو : أن المفهوم الذى هو في بؤرة اهتمام أبنائها هو مفهوم (**غير الذات**) ، مع أن استيعاب ما لدى الغير واستقبال مصطلحاته ينبغى أن ينطلق من الرؤية الخاصة لمفهوم (**مصطلحات الذات**) ، وينضبط بمفاهيمها .

ونواة مفهوم (**الذات**) هو : مفهوم (**القرآن والسنة البيان**) . فبهذا المفهوم، وله، وعليه ، قامت الأمة . والأمة لا تقوم ما لم تفهمه حق الفهم ، ولا تعتبر قائمة به ولا عليه ما لم تقيمه كما أمرت صدقاً وعدلاً . ومقتضى إقامة الأمة لهذا **المفهوم الأصل،** هو : إقامة (**المفهوم الفرع**) النابع منه ، والمتمثل فى مفهوم الأمة ذاتها ، وفى أصول تفاعلها مع التاريخ ، وفى التاريخ . ويتطلب ذلك إعادة بناء مفهوم (**مصطلح العلوم والفنون والصناعات**) مع فهمه وتقويمه وتوظيفه صدقاً وعدلاً . ويرتبط بذلك أيضاً تجديد الفهم لعلوم الشرع ، وعلوم الإنسان ، وعلوم المادة ، وتنقيتها مما دس فيها أو شوهها عبر الفعل الإنسانى .

ويحتاج مفهومي(**الإنسان**) و(**علوم الإنسان**) بشدة إلى (**جمارك قرآنية**) لغلبة المضامين الدلالية الوافدة عليهما . فالبحث في هذين المفهومين قائم الآن برؤية الآخر ومنهاجه . والأمة المرشحة لإنصاف الإنسان وتحقيق عزته وكرامته ، وإعادة الآدمية المسلوبة للعلوم الإنسانية كلها بالتحول من المفهوم المادي للإنسان إلى خصوصيته في الخلق والتكريم ، هي الأمة الإسلامية ، المكلفة بحفظ وظيفة العلوم ، بما ينفع الناس ويمكث في الأرض .

ويرتبط قيام **أمة الإجابة** بهذه المهمة باستعادتها لوضعية (**الشهود الحضارى**) . ولا شهادة إلا بأهلية . وشروط هذه الأهلية هي **: استعادة الأمة الوسط الخيرة ، حاملة الأمانة التي لا تسند إلا للأقوياء ، ذات الحضور لأداء الشهادة ، وذات المنحى الحضارى فى كل المجالات وعلى كافة المستويات .**

ومن هنا يطرح موضوع **إعادة بناء علوم الأمة** ، بقيام علماء الأمة بالسهر لحراسة ثغرها المعرفي ، إشكالية : كيف تنتقل الأمة التى أصبحت أشلاء من : **مشهودية واقع الجمود والجحود** ، إلى **شاهدية الموقع** بالاجتهاد والحضور والشهود الحضارى ؟ ومفتاح الإجابة هو استحضار هذه السنة الكونية : **لا إصلاح حال قبل إصلاح العمل، ولا إصلاح عمل قبل تجديد الفهم ، ولا تجديد للفهم قبل تجديد المنهج .**

ونحن نعاني من ترسبات منهجية فاسدة ، ومن **مقذوفات منهجية** صبها الغرب على رؤوس نشء الأمة ، مع افتقارها في صنع (**كواسح الركام والألغام المعرفية**) . فالأمة بحاجة إلى منهج لفهم الذات واكتشافها ، وبحاجة إلى نهج لخطابها الذاتي يصب في اتجاه توحيد ذاتها ، وبحاجة إلى نهج لتجديد الذات لتصير قادرة على الشهود الحضاري على ذاتها وعلى غيرها .

ومن الأهمية بمكان التنبه إلى أنّ مفهوم **(العولمة)** الذي هو العنوان الأكبر **للعقلية الدهرية المعاصرة** هو أضخم غول أمكن لعبدة العجل إنتاجه على مدى التاريخ الإنساني،

وأنّ أسلحة هذا الغول الجديد هي : المفاهيم، التي أعدها ويعدها لسحق الديانات والحضارات والأمم، من أجل استعباد كل البشرية لـ : دين وثقافة وحضارة (العجل)، بمفاهيم مثل: حقوق الإنسان والشريعة الدولية والنظام العالمي الجديد، والإرهاب، وحرية سوق السلع والخدمات والأفكار .

والحرب المفاهيمية الراهنة تستهدف الإسلام وحده ، وهى أخطر من الحرب النووية. ونحن نحتاج بالتالي إلى (**التمشيط المفاهيمي**) في كافة العلوم ، وإلى(**نقاط فكرية جمركية في كافة نقاط التماس الحضاري تأميناً لسلامة الذات**).

وعدة ذلك هي العودة إلى: **المفهوم القرآني الفريد** (لاتسامه بـ: الخصوصية المفهومية غير القابلة للتغير والتبديل، واللازمانية واللامكانية ، والشمول ، والنقاء) . فمثل هذه المفهوم هو وحده الذي نستطيع بعون الله وتوفيقه **فيما لو أخذناها بقوة أن نفعل بمفاهيم السحرة** ، ما سبق أن فعلته بها عصا موسى المؤيدة بالوحي المنزل من عند الله ، وما فعلته عصا إبراهيم بالأوثان ،حين عملت في محراب : إقامة الحجة التي آتاها الله للخليل υ.

ويدعونا سيف الدين عبد الفتاح إلى التنبه إلى ما تستدعيه هجمة (**العولمة الراهنة**) المتخللة للبنيات والسياسات والمجالات ، في عالمنا الإسلامي ، من واجب السعي إلى التحول من (**الوصف**) على الهوى الغربي ، إلى (**الوصفة**) التي تحمل مسمى لا يمت لها بصلة (**الإصلاح**) والتي تزحف من خلال توظيف مفهوم (**المدني**) ضد (**الديني**) ، وليس ضد (**العسكري أو السياسي**) بالأساس ، وتنصب بذلك فخاخاً عديدة تفرض علينا أولويات ومرجعية ووصاية غربية ، في تحيز بالغ في ساحة المفاهيم ، بهدف اغتصاب أو احتلال الجهاز المفاهيمي المشكل للوعي الإسلامي ، وزرع قابليات الاستعمار فيه . ويستدعي ذلك، الرد بـ (**اللياقة البحثية**) التي تستوجب : لياقة المعلومة والمصدر والمنهج، والتركيز على التربية بالهوية وعليها ولها.

ويمكنني أن أضيف **لبنة** أخرى لهذا المفتاح القرآني ، قوامها محاولة الخروج من أسر التسطيح المعرفي لمفهوم الإنسان. فالمنظور المسمى : **العلماني**، يعتبره أرقى نوع في الحيوانات ، وابن الطبيعة ، منها بدأ وإليها مرجعه . **والمنظور الفقهي** التقليدي ينظر إليه على أنه : الكائن المكرم .

والفرق الجوهري بين التوجهين في الإجابة على سؤال : ما الإنسان ؟ هو أنّ التوجه الدهري ينفي أية علاقة بينه وبين الله ، بينما يثبت التوجه الثاني تلك العلاقة ، لكن مع التعتيم التام على حقيقة مشروطية ذلك التكريم ومتطلبات استدامته .

والتوجه الأول لا ينتج إلا إنساناً من واحد من نوعين : إنسان مقهور بالطبيعة ، أو: إنسان ساع لقهرها ، يستبد به الخوف في كلتا الحالتين ، ولا يشغله غير التفكر في الصراع.

وهو حتى حين يتعاون يتكيء على مقولته : لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة . فصديق اليوم عدو الغد وعدو اليوم صديق الغد .

والتوجه الثاني ينتج نوعين من الإنسان : **إنسان جاهل** بأنّ التكريم مشروط بالتزام الشرعة والمنهاج المجعولين من الله تعالى ، فيزكي نفسه بغير حق ، وإليه يشير قول الله تعالى:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً) (النساء:49) ، وقوله جل وعلا (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ **فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ** هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) (النجم:32)، **وإنسان جاعل هواه هو الأصل** مع مجرد البحث عن معضدات لذلك الهوى بالهوى من القرآن .

وأما **المقولة الثانية** بالغة الخطورة ، فتتعلق بالتماس **الحكمة** في العلوم الغربية الحديثة المؤسسة على الفصل بين الدين والقيم والأخلاق وبين العلم. وبالتالي فإنّ السعي إلى استيراد تلك العلوم والنسج على منوالها ، هجر للقرآن وقلب للموازين بتثبيت المتغيرات وتسييل الثوابت . وإذا كانت الحكمة هي وضع كل شيء في الموضع الذي خلقه الله له ، فإنّ رأس الحكمة هي وزن كل ما بالوجود بميزان القرآن .ويبين القرآن في سبع عشرة آية منه أنه كما أنّ أصل **العلم** من عند الله ، فإنّ أصل **الحكمة** في كتاب الله ، وفي الأسوة بأنبياء الله ورسله . والبحث عن الحكمة بغير هذا الميزان ، وابتغاء الهدى من خارجه هو عين الضلال .

ومفتاح الحكمة متضمن في قول الله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) (الأحزاب:72)، وفي قوله تعالى (قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: 38)، وفي قوله عز وجل (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) (طه:123).

وتبين تلك الآيات الكريمة أنّ شرط حصانة الإنسان بكل أنساقه المجعولة والمحاكية من **رباعية التعاسة: الخوف** (تحصيلهم هم أنفسهم للأمن ، وعدم خوف كل أوليائهم عليهم ، وفي مقدمتهم : ربهم وأهلهم والملائكة وصالحي المؤمنين) ومن **الحزن** ، ومن **الضلال** ، ومن **الشقاوة** ، هو : اتباع الهدي المنزل من عند الله تعالى .

وتقدم الآية الأولى أدق تعريف منهاجي للإنسان ، يمكن عبره بناء علوم الأمة، فهي تحدد: **موضوع العلم** (رعاية الأمانة وتأدية الأمانات إلى أهلها)، وتحدد **خصائص المكلف** بموضوع العلم (حامل للأمانة باختياره الحر المسؤول ، ظلوم ، جهول ، لم يؤت من العلم

إلا قليلاً ، لا قبل له بحمل تلك الأمانة وتأدية تلك الأمانات إلا بعبادة الله والاستعانة به ، و الامتثال لما علمه الله ، وطلب المزيد من العلم من عند الله ، واستخدام قابليات المعرفة التي زوده الله بها على النحو الذي خلقها الله له) .

ولست في مقام القراءة السياقية للأفق المعرفي القرآني لهذه الآية الكريمة ، فذاك جدير بدراسة قائمة بذاتها .فقط أكتفي هنا بومضة معرفية في محراب هذه الآية الكريمة تضعنا أمام **زوج من المنظومات القرآنية المفتاحية** : منظومة الأمانة المحمولة / منظومة الإنسان الظلوم الجهول . والعلاقة بين المنظومتين تتسع لمتصل يبدأ في طرف منه بتزويد المنظومة الأخيرة بنور كلمة الله ، فتصير محاكية لتلك التي كانت لآدم عليه السلام حين خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له كل الطيبت وحرم عليه كل الخبائث ، فنغدو أمام ما أسميه : نكاح بعقد قران بكلمة الله ترقى فيها المنظومة الأخيرة لمقام التكريم الرباني ولأعلى عليين ، ولحمل وأداء الأمانة التي أشفقت السماوات والأرض والجبال أن يحملناها . ودعونا نسمي العلوم التي يحصلها الإنسان على هذا النحو : **علوم النكاح** العمراني .

وعلى **الطرف الثاني** من ذلك المتصل نجد : الإنسان الظلوم لنفسه ولغيره ، المضيع للأمانة ، الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها إلا إذا كانوا **قائمين عليه** . وإليه يشير قول الله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ **لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً** ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران:75)، **وقوله تعالى**(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام :112). وشاغل هذا الطرف عاجز عن حمل الأمانة ومبدد لها ، ولايستطيع أن ينتج غير علوم التفريق والفرق والشقاق والمشاقة لله ورسله . ودعونا نسمي علومه : **علوم السفاح** العمراني.

وبين هذين الطرفين توجد **أنواع عديدة** يختلط فيها الحق بالباطل ، مع مجرد اختلاف في نسبة كل منهما في كل منها ، وفق درجة اقترابه من الطرف الصالح أو مدى قربه من الطرف الطالح. ودعونا نسمي هذا النوع الثالث بمختلف فسائله : **العلوم المهجنة .** وتلك هي ساحة الابتلاء المعرفي الكبرى . وقد يقع الباحث في أسرها عن جهالة ثم يتوب من قريب . وقد يقوم بالتنظير لها بتحريف الكلم عن مواضعه ، ونسيان حظ مما ذكر به. وقد يسعى بها إلى إلباس الحق بالباطل عن علم ومعرفة . وقد يسعى إلى تمييز ما بها من الحق وفك أسره ، وما به من باطل وضربه بالحق حتى يكون زهوقاً بإذن الله تعالى .

وفي حين يمكن تحقيق التكاثر والتوالد المعرفي عبر علوم النكاح بما يؤدي إلى **عمران التمكين** المؤسس للحياة الطيبة في الدنيا والفلاح في الآخرة ، وعبر **علوم السفاح** بما يحقق **عمران الاستدراج** وحياة الضنك في الدنيا والبوار والخسران المبين في الآخرة ، فإنّ العلوم المهجنة لا تنتج إلا: **العقم المعرفي** . فالحق حين يلتبس بالباطل لا يلد إلا سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

ولعلي أمسك بلجام قلمي هنا حتى لا أدخل في واحة ما هو أبعد من الإضاءة المعرفية الخاطفة على المفتاح القرآني الذي نعيد استكشافه لبناء كافة علوم الأمة من القرآن، وليس من خارج القرآن ، فأكتفي بالقول بأنّ معنى **وسطية أمتنا** هو أنها : تسعى دائما إلى **بناء** : علوم النكاح العمراني ، واجتناب علوم السفاح العمراني الذي أرشدنا القرآن - وفي مقدمتنا النبي الخاتم υ إلى التزامه بقوله جل وعلا (فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) (التوبة: 55) ، وقوله في سورة الروم (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)(7).

ومعيار الوفاء بالأمر التكليفي بالسعي لبناء علوم النكاح العمراني ، والوفاء بواجب الانتهاء عن الاقتراب من علوم السفاح العمراني ، هو : **اجتناب علوم العقم المعرفي** ، لسبب بسيط هو أن من يستولدها متبع لخطوات الشيطان ، ومن يركن إليها مغلق لكل منافذ تخلية علوم السفاح ، وكافة قابليات فيوضات علوم النكاح . والقرآن يعبر عن مآلات الإنسان غير المجتنب لها بكل أنساقه العمرانية، بمفاهيم مفتاحية لا غنى عن بنائها وإعادة استكشافها ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر : القلوب الغلف ، والختم على القلوب ، والختم على السمع والبصر ، والتفكر القاتل ، ونور المنافقين ، وسراب القيعة .

ولعلنا نصل هنا إلى تحديد الأسئلة الكبرى **لعلم النكاح العمراني** : ما الإنسان ؟ ما الأمانة التي حملها ؟.وما هي منظومة الأمانات المنبثقة من الأمانة التي حملها الإنسان؟ من هم أهل الأمانات ؟ ما هو فضاء مفهومي : حمل الأمانة وتأدية الأمانات إلى أهلها في الحياة الدنيا ؟ ما هي معايير ومؤشرات تأدية الأمانات على كافة أنساق أمتي الإجابة والدعوة ؟ ما هي سبل حفظ الأمانات ؟ ما هي سبل الارتقاء في ابتغاء أسباب حمل الأمانة وتأدية الأمانات ؟ ما هي معالم طريق تحصيل عمران التمكين ؟ ما هي معالم الطريق إلى تحصيل شروط التوبة المعرفية النصوح ؟ ما هي معالم الطريق إلى القيام بفرض الشكر المعرفي لله تعالى ولأصحاب الفضل من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ . تلك في تقديري هي الأسئلة التي يمكن بناء علوم الأمة عبر التنقيب عن إجابات عليها مهتدية بنور القرآن المبين .

والعلوم أياً كان نوعها تبنى من **ثلاث رؤى** كل منها حاكم لما يليه ومتغذي منه وماد له بأسباب الحياة : رؤية الطائر ، والرؤية المعمارية ، والرؤية التنفيذية .

وقد يقتضي ولوج ساحة هذه المفاهيم المفتاحية الثلاثة التي نحتتها منى أبو الفضل، البدء بالتذكرة بقول الله تعالى: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء:79) فالفقه هو الفهم . وحيازة الإنسان لقدر من العلم ومن الحكمة لايغني عن (**التفهيم الرباني**). فالآية الكريمة تبين بوضوح بالغ أنّ المنعم عليه بحكم وعلم وبتسبيح الجبال والطير معه، لم يتمكن باستعمال تلك النعمة السابقة أن يفهم فهماً يجعله يقدم الحكم الأمثل، بينما تمكن سليمان المماثل له في نعمة الحكم والعلم وحسب ، من تقديم الحكم الأمثل المنبثق من (ففهمناها). وانطلاقاً من هذا المفتاح القرآني، يمكنني تعريف العقل في المنظور الإسلامي ، والتمييز بين صنوف **أربعة** من العقول الإنسانية .

فمفهوم العقل الإنساني في المنظور الإسلامي ، محمل في اللسان العربي **بخمسة** مضامين: **أولها** : القيد الحافظ (وإليه يشير مبدأ : **إعقلها وتوكل** . ومقتضى أن لا يصير القيد قيداً مولداً للطغيان وللاستعباد والاستبداد ، أن يكون أول تكليف للعقل هو : **إعقل نفسك وتوكل على الله تعالى** . وهو حين يقوم بهذا التكليف حق القيام به ، يتأهل للاتصاف ببقية مضامينه الدلالية . أما حين يخفق في القيام به فإنه يصير هو أول الضائعين ، وبالتبعية إمام المضيعين لكل ما عداه) . و**ثانيها** : وعاء التلقي من السمع والبصر من الوحي المنزل ومن الخليقة المنظورة . وهو حين يتلقى على شاكلة حاطب الليل يصاب بالغشاوة وتكتنفه الظلمات المتراكبة. وأما حين يتلقى عن الحواس والوجدان تلقي المستنير بنور من الله ، وبنور من نور المؤمنين النابع منه الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ويمشون به ، فإنه يغدو مؤهلاً **لثالث** دلالة مضمونية له وهي : الحكم فيما يتلقاه من الحواس ، بفرز ما به من الحق وتمييزه عن ما فيه من الباطل ، وما فيه من المعرفة المزجاة . وببلوغه هذا المرتقى **يتأهل لرابع دلالته** المضمونية ، وهي : العمل كراعٍ للحواس وللأيدي والأرجل والفروج ، مسؤول عن رعيته . ويصير قيده لها قيد حرية مسؤولة ، يجعلها تشهد له لاعليه في الدنيا والآخرة . وفي المقابل فإنه حين يحكم هواه في تلك حواس صاحبه وأطراف سعيه ، فإنه يغدو مضيعاً لها ، مستحقاً لشهادتها عليه بتبديدها وتوجيهها بالغواية إلى عكس ما خلقها الله له. وبفلاح العقل الإنساني في التزود بالدلالات المضمونية الأربع سالفة الذكر يغدو **مؤهلاً للدلالة المضمونية الخامسة**: الرزق بغير حساب بالحصول على: الفهم والتفهيم الرباني. وعندها يجمع بين : رجاء رحمة الله والخوف من مقام الله تعالى. فلا يصير خصماً وعدواً إلا للهوى والشيطان. ولا يستطيع عدواه هذين النيل منه مطلقاً إلا في حالة واحدة هي : نسيان

ما ذكره الله به . فحتى الافتقار إلى العزم لايفعل فعله الخبيث إلا بالنسيان . يقول الله تعالى عن أول نجاح للشيطان في أول معركة له مع الإنسان (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) (طه :115). ومن هنا كان من بين أسماء القرآن : الذكر، وكان من أهم ما كلف الله به نبيه الخاتم (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) الغاشية:21، وقوله : (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) (الأعلى:9) وقوله عن القرآن كله (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) (الحاقة: 48) وأما الافتقار إلى العزم فيمكن التحصن منه بالتذكرة و العودة إلى حصنه بالتوبة والاستغفار وعدم الإصرار على الخطأ على علم.

ومن هنا تظهر محورية مفهوم : **ذاكرة الأمة** ، ووصل حاضرها بماضيها ، ليس للفخار بالأخير، ولا لسحب الحاضر إليه ، بل للتحرك من (**مجمع بين الحاضر والماضي**) للسعي الرشيد في حاضر الأمة المنتج ل(**علم الرشد العمراني**) الذي بيّن القرآن الكريم مجالاته الثلاثة : **خرق** العالم في مقابل خرق الجاهل ، **والفضاء المعرفي** القرآني لمفهوم القتل المحقق للتخلية المبكرة لما يتوفر اليقين القاطع على أن فعل الخير سيتولد منه إرهاق الطغيان والكفر لفاعله ، وإبداله بالرحمة والزكاة من الله تعالى، **وإقامة الجدار المائل** ليتامى الصالحين في قرى اللئام ، حسبة لوجه الله تعالى .وفي سورة الكهف فيض لاحدود له لمن يريد الاستعانة بالله وبيان معالم علم الرشد العمراني من القرآن الكريم، لايتسع المقام للتسبيح بحمد الله فيه .

وعلى ضوء ذلك، يمكن التمييز بين **أربعة أنماط من العقول الإنسانية** يطبع كل منها ما ينتجه من علوم بصبغته ، بالنسبة لكل الأنساق العمرانية لأمتي الدعوة والإجابة، لكل منها رؤية طائر ، ورؤية معمارية ، ورؤية تنفيذية :

أولها : العقل الدهري المكتفي بذاته . وهو عقل نابذ للحرية التوحيدية ، ناف للغيب ، ظان بأن الطبيعة خالقة لنفسها بنفسها ، ولا حياة بعد الموت ، وعلاقة الإنسان بالوجود هي علاقة صراع أبدي يرمي إلى الخلاص ، وقائل بأنّ البقاء للأقوى ، وبخطيئة التطور، ومتردد بين مقولتي: لاحقيقة موضوعية علمية غير المحسوسات القابلة للخضوع للتجريب ، وبين القول بنسبية الحقيقة وسيولتها. وهذا العقل لايعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا .وهو غافل عن الآخرة . وقيده من خارجه . فهو محكوم بنصيبه من القوة النسبية الشاملة ، وبها يسلم **بوضعية الاستعباد** تجاه كل من هو أقوى منه ، **وبوضعية الطغيان** تجاه كل من هو أضعف منه . وهو لا يشبع من طلب القوة ، ولا يكف أبداً عن الانحياز إلى الأقوى لمعاونته على قهر الأضعف. فنواة شبكة علاقاته مع ذاته ومع غيره من البشر ومن كافة المخلوقات هي : **الصراع واعتبار القوة هي الحق** . وهو جزئي بالضرورة لنفيه لكل ما لم يعرفه بعد، مما يجعل ساحته متخمة على الدوام بمفردتي :

الموت (موت الإله، موت الإنسان، موت المؤلف ، على سبيل المثال) ، **والمابعديات** (ما بعد الوضعية ، ما بعد السلوكية ، ما بعد الحداثة ، على سبيل المثال لا الحصر) .

و**ثانيها** : العقل الباحث عن معضداتٍ للرؤية النابعة منه من القرآن وصحيح السنة النبوية. وهذا النمط من العقول ، على عكس سابقه ، لايستبعد الدين في تشكيل رؤيته بكافة مستوياتها ، ولكنه يؤسس منهاجيته من خارج القرآن ، ويعتبرها هي الأصل والمعضدات القرآنية لها هي الفرع . وهو في صنيعه هذا يحول الميزان موزوناً والموزون ميزاناً. فهو يؤسس للفهم من خارج القرآن ، سواء تعلق الأمر بفهم القرآن نفسه ، أو بفهم كافة شؤون الحياة .

ولا يفلح هذا العقل إلا في إنتاج **نوعين من العلوم** : العلوم **المفخخة** جيدة التغليف الموشاة ببعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية ، والعلوم **المقزمة** لمفهوم الفقه الحاصرة له فيما أسماه محمد الغزالي من قبل : **فقه المراحيض والنفاس** . والنوع الأخير من العلوم هو أخطر ما ابتلي به عقل أمتنا منذ القرن الثالث الهجري حتى الآن ، وأفرز الفرقة المذهبية وغيب فقه الأمة وأثمر طوفاناً من الصوارف عن القرآن ، وعن تلاوته حق تلاوته . فلقد حكم هذا العقل لسان العرب في لسان القرآن. ومن أبرز خصائص هذا العقل : **تحكيم الإنساني** النسبي غير المعصوم المحكوم بمعطيات الزمان والمكان، في المطلق القرآني ، **وسحب** القصور النسبي الإنساني إلى فهم المطلق القرآني والحيلولة دون الاجتهاد في تلمس نصيب منه والمجاهدة به ، و**تقزيم** مفهوم التكليف وتحويله إلى قيود ومشقة ، بعزله عن مفهومي : النور الرباني ، والهدي القرآني ، وبعدم النظر إلى كل تكليف بأمر أو نهي إلهي على أنه حلقة تتغذى من روافد كافة النواهي والأوامر الأخرى وتغذيها .

وأوقع هذا العقل الأمة في طوفان من التفريعات الفقهية التي يعجز جمهور الأمة عن فهمها ، والتي بعضت القرآن ، وحجبت نوره في الفقه الأمتي لكافة الأنساق الإنسانية العمرانية المجعولة والمحاكية . فلقد كانت غاية هذا العقل هي بيان الأحكام التكليفية بمعيار مفروض على القرآن وغير نابع منه.

و**ثالثها** : العقل الدهري كما بينه القرآن . وواقع الأمر أنّ مفهوم (العلمانية) ومفهوم (العالمانية) اللذين اخترقاً عقل أمتنا عبر الترجمة لمفهوم : الرؤية الدنيوية النابذة للدين وللقيم وللأخلاق ، هو كما بين المسيري على نحو جد معمق مفتاح تفخيخ كافة المفاهيم الواردة إلينا من الغرب المعاصر . والمفهوم الأول يشي باشتقاقه من العلم ، والثاني يشي باشتقاقه من العالم .وكلا الاشتقاقين يقوم على دعوى مزيفة . ومن هنا يأتي تحبيذ استخدام المفهوم القرآني لتعبيره بدقة عنه (العقل الدهري) . وهذا العقل يؤله الدهر ، ويرسم صورة مقيتة لإلهه هذا حيث يعتبره مهلكاً ، ويعتبر الحياة الدنيوية محنة يجب السعي

للتخلص منها ، وأنّ الإنسان أمام خيارين لا ثالث لهما : أن يكون عبداً لأسطورة اختلقها وهي الدين ، أو أن يصير إله نفسه . ويقوم هذا العقل على نفي الآخر و النظر إليه على أنه خطر ، والبحث عن حرية الإرادة الإنسانية الفردية المطلقة ، وفرضها على أواخره .

و**رابعها** هو : العقل التوحيدي **الناظر** بنور الله ، **غير** المعصوم ، **الساعي** إلى التسبيح الحر مع الكون المسبح بحمد الله ، بالاستماع إلى القرآن والإنصات له والتدبر فيه ، **الناظر** إلى الإنسان على أنه مخلوق بيد الله تعالى مكرم مبتلى بالحرية التوحيدية ، حامل للأمانة ، قابل للتزكية وللتدسية ، غايته هي الفلاح في الدنيا ولآخرة ، وليس الخلاص ، **سائر** بنور الله ، **باحث** بالتوحيد الخالص عن الالتزام بكلمة التقوى والسعي إلى كلمة سواء لدخول الناس في السلم كافة ، والقيام بمهمة الخلافة في الأرض بناظم الجامع لا التفريق ، وفق شرعة ومنهاج منزلين من عند الله تعالى ، نواتهما هي : حفظ المقاصد القرآنية العليا ومقاصد الشريعة الخمسة : الدين والنفس والمال والعقل والنسل، حفظ بقاء ونماء وارتقاء، **باحث** عن تعزيز الأسباب الربانية الممنوحة بالأسباب الإنسانية المتبعة، في السعي في الأرض بشرع الله على نحو يبتغي : التقييد الحر المسؤول لكل موارد الضلال والغضب الربانيين ، والأسوة الحسنة بالصالحين ، وتعظيم آفاق وأسباب التسبيح المشترك والحرية المسؤولة المؤدية إلى التزكية والعمران والفلاح .

وتفتح خريطة أنماط العقول الإنسانية أذهاننا على حقيقة وجود أربعة أنواع من العلوم في كافة المجالات، يتعين أن يكون مفتاح التأصيل الإسلامي للعلوم منبثقاً من الوعي بأن مقام العلوم التي يبنيها العقل التوحيدي هو الصدارة في معيارية تخلية ثمار العقول الثلاثة الأخرى والقوامة عليها، وعدم الانسياق إلى تحميل حقيقة أنّ العلوم الغربية الحديثة حققت تطوراً غير مسبوق من حيث البعد الفني في التبويب والتفسير أكثر مما تحتمل . فتلك العلوم لا يمكن مطلقاً الفصل بين مناهجها ونظرياتها ومفاهيمها وبين ناظمها الدهري .ونحن هنا لا ندعو لاجتنابها برمتها، بل لوضعها في المقام اللائق بها ، ووزنها بالقرآن ، وتحويل ما لا يتعارض فيها مع القرآن إلى غذاء معرفي يتولى العقل التوحيدي تمحيصه وهضمه والتخلص من نفاياته .

ويمكن القول مع طه العلواني بأنّ العقل المسلم المعاصر مشتت بين **سبع** توجهات للتجديد الفقهي المعرفي : **أولها** : توظيف الفقه لخدمة الحداثة وما بعد الحداثة مع إضفاء الشرعية عليها .و**ثانيها** : المناداة بضرورة التجديد الفقهي الحضاري الذي يحتفظ بثوابت الفقه التقليدي مع السعي إلى تكييفه مع متطلبات العصر . و**ثالثها** : المناداة بتجديد الفقه وتوسيع مجاله ليشمل كل شؤون الحياة وكافة العلوم ، مع المفاصلة التامة بينه وبين الحداثة والليبرالية العلمانية . و **رابعها** : القول بعدم حاجة الفقه التقليدي لأي تغيير أو تجديد

، وأن الخلل ليس كامناً فيه ، بل في طريقة تدريسه ، وهي التي يجب التفكر في تغييرها. و**خامسها** : القول بكفاية ما بناه أئمة المذاهب الفقهية من أصول وقواعد فقهية ، لتخريج حكم منها لكافة المستجدات عبر الفقه المقارن . و**سادسها** : توجه يرى عدم صلاحية الفقه التقليدي الموروث لمعالجة قضايا العصر . وينقسم دعاة هذا التوجه إلى توجهين فرعيين :فريق يدعو إلى تأسيس فقه جديد بكل معنى الكلمة ، وفريق يدعو إلى استصحاب الصالح في الفقه التقليدي الموروث . و**سابعها** : توجه يدعو إلى بناء أصول الفقه من القرآن ، وبناء السنة النبوية من القرآن .

ولعل ما طرحناه في هذه المقاربة في إعادة بناء مفهومي (البضاعة المعرفية للأمة) و(الحكمة) التي يتعين أن تكون هي ضالة الأمة ، يفتح الطريق لتخليص العقل المسلم من هذا التشتت ، حتى يستطيع الشروع في عملية تأصيل لعلوم الأمة نابعة من القرآن الكريم . فتلك في اعتقادي هي شرط جعل التأصيل الإسلامي للعلوم إسماً على مسمى ، وإخراج أمتنا من حالة الجمود والمراوحة الراهنة في المكان ، بل من حالة التردي المتفاقم بمرور الزمن. فالمنهاجية هي : علم بيان الطريق . وهي ليست أداة بحثية محايدة . ولا تأصيل دون بنائها أولاً وعلى نحو محكم من القرآن ، واستخدامها في بناء المفاهيم المفتاحية للأمة لتكون هي لبنات علومها ، والعملة التي يتعامل بها علماؤها مع علومهم .

بقيت الإشارة إلى مفتاح قرآني - على سبيل المثال - لبناء : **موسوعة علم النفس الإسلامي** ، بتصور أولي يقيم معمارها على البدء **ببناء مفهومي** : الإنسان والنفس الإنسانية من القرآن ، بدءاً من الموقف التأسيسي الأول المتمثل في إعلام الله ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة ، مروراً بتعليم آدم الأسماء كلها ، وإسجاد الملائكة له وتعريفه بأوليائه وبعدوه ، ثم بحلقة خلق زوج للنفس الواحدة منها ، ثم بحلقة اختبار الحرية التوحيدية بالجنة بكل فضائها المختتم بتوبة الله على آدم واجتبائه وهدايته ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة المقررة للإنسان قبل خلقه ، والعهود التي أخذها الله تعالى على الإنسان وعلى النبيين، وسنة الله الواحدة التي لا تتبدل ولا تتغير ، والرؤية الكلية القرآنية للأسئلة الكبرى للإنسان في كل زمان ومكان ، وفضاء السعي الإنساني في الأرض، وضوابطه ، و مآلاته ، وثوابته ومتغيراته .

ويلي ذلك بناء فصول بالموسوعة عن كل من : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة ، والنفس الزكية ، والنفس المقتصدة ، والنفس السابقة بالخيرات، والنفس الضالة ، والنفس المغضوب عليها، والنفس المجتالة ، والنفس المطموس على قابلياتها، والنفوس المزوجة ، والنفوس الأوابة.

وتبين الموسوعة المرتقبة: خصائص كل نفس من تلك الأنفس ، وشبكة التدافع العمراني بينها، ومنظومات الأوامر والنواهي التكليفية الربانية الموجهة لكل منها، ومتطلبات التزام كلمة التقوى والسعي إلى كلمة سواء فيما بينها ، ومنظومة البلاغ القرآني لكل منها، وفضاء التوبة وتغيير ما بالنفس .

ولا تقف تلك الموسوعة عند حد التأسيس المعرفي لنفس الفرد ، بل تنظر إلى الفرد ضمن أنساقه العمرانية المتحاضنة ، المجعولة والمحاكية .وتعامل كل نسق من أنساق الأمة : الأسر، العشائر ، البطون ، الأفخاذ ، القبائل ، العمائر ، الشعوب ، أمة الإجابة ، أمة الدعوة ، على أنه بمثابة نفس معنوية واحدة، يتعين التنظير من القرآن لمنظومة الرعاية المتكاملة في داخل كل منها ، وفي شبكة علاقاته مع الأنساق المناظرة له ، والأنساق غير المتناظرة التي هي أدنى منه ، وتلك التي هي أعلى منه ، بما يجسد مفهوم : تربية كل من هو أكبر لكل من هو أصغر منها ، مع اجتناب عقوق كل نفس لمن هم في حكم والديها والإحسان إليهما لدى بلوغهما الكبر عندها ، وتلمس كل نسق نصيب من أسماء الله الحسنى عامة ، ومن اسم الرب بوجه خاص .

ومن شأن موسوعة كتلك التي نتصور انطلاقها من مثل تلك الرؤية المعمارية أن تستلهم الفيوضات القرآنية لمفهوم النفس بقراءة سياقية له في سياقه القريب ، وفي السياق القرآني بوصفه جملة واحدة بل كلمة واحدة ، في فضاء يتعدى الدنيا إلى الآخرة، ويكشف عن مآلاتها . فلقد وردت مفردة النفس هذه بالقرآن بصيغة (النفس) سبع مرات ، وبصيغة (نفس) سبعاً وأربعين مرة ، وبصيغة (النفوس) مرة ، وبصيغة (الأنفس) خمس مرات ، وبصيغة (أنفسكم) ثمان وثلاثين مرة ، وبصيغة (أنفسهم) اثنتين وسبعين مرة ، وبصيغة (نفسها) مرتين ، وبصيغه (أنفسهن) مرتين .

ولا يقف ثراء فرصة التأسيس القرآني لمفهوم النفس على التدبر في ذلك المفهوم من لفظه المباشر بكل تصريفاته المذكورة في السياق القرآني القريب الوارد به ، وفي البنية القرآنية الواحدة ، بل يتسع ليشمل بنائه من المفاهيم التي تشكل عائلة له ، وفي الصدارة منها : القلب والعقل والبصر والبصيرة والسمع والفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فهل نطمح بالفعل، في محاولة إخراج مثل تلك الموسوعة بنور الهدي القرآني ، والكف عن اجترار منظومة علم النفس الغربي الذي تأسس على رؤية مفارقة للهدى الرباني ، والذي أحل مفهوم إنسان الموضع الاقتصادي المنتج بلا حدود لاستهلاك بلا حدود ، محل الإنسان الكوني الرسالي ؟.